المحور الثاني
الدّور الاقتصادي للموانئ الجزائرية عبر العصور

عنابة، الميناء والمدينة (هيبون)

أ.د. شافية شارن
قسم التاريخ جامعة الجزائر

مقدمة

تقع هيبون جنوب غرب مدينة عنابة، وتملك موارد طبيعية متنوعة، كما تتوفر على منطقة خلفية غنية، وما زاد من أهميتها الاقتصادية اختيار الفينيقيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ميناءها لربط المنطقة بالعالم الخارجي. سنحاول من خلال هذا البحث دراسة النشاطات الاقتصادية للمدينة والاطلاع على علاقاتها التجارية والحضارية خلال الحقبة الرومانية الممتدة من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الرابع ميلادي باعتبارها أزهى عصوره، كما سنحاول إبراز أهمية هذا الميناء المتوسطي ودوره في تطور وازدهار المدينة.

كما يستدلّ من اسمها، هيبون مدينة ملكية (résidence ou ville royale)[1] وكانت مكانا حصينا لحفظ ثروات وكنوز الملوك النوميديين، شأنها في ذلك شأن مدينتي ثالة وقسنطينة. بعد استيلاء الرومان عليها في عام 146 ق. م، أصبحت تابعة لمقاطعة إفريقية البروقنصلية (تونس)، وارتقت في عام 78 ق.م. من مرتبة بلدية (Municipium augustam) إلى مستعمرة، وعرفت تطورا كبيرا حتى

أنها صارت في القرن الثاني ميلادي المدينة الإفريقية الساحلية الثانية بعد قرطاجة.

يحتل ميناء هيبون الطبيعي موقعا استراتيجيا، حيث يقع بين سلسلتين جبليتين هما جبل إيدوغ ورأس الحارس (cap de garde) اللتين تحميه من الرياح الغربية والشمالية الغربية العاتية، وتكمن أهمية هذا الميناء البحري، في كونه يقع بالقرب من موانئ نشطة، افريقية كمينائي سكيكدة وقرطاجة، وأوروبية كميناءي سردينيا وصقلية.

وقد زادت أهمية هيبون نتيجة التحولات التي شهدتها عبر العصور، حيث بعد أن كان محطة فينيقية[2]، وأحد الموانئ الرئيسية لنوميديا[3]، أضحى منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد ؛ نتيجة توسع دائرة نشاطه، أحد الموانئ المخصصة لتموين روما (port annonaire) تتولى حمايته ودعمه وحدات من للأسطول الروماني[4]، وتشرف على نشاطاته شرطة خاصة[5]. ومن ثم يمكن القول أن هذه العوامل وأخرى ساهمت في تنشيط ميناء هيبون لإقامة علاقات متنوعة داخلية وخارجية.

أولا) الحياة الاقتصادية في هيبون بين منتصف القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الرابع ميلادي

اشتهرت هيبون منذ الفترة البونيقية[6] بوفرة وتنوع مواردها نذكر منها.

1) الموارد الطبيعية والحرفية

لقد جعلت الظروف الطبيعية من هيبون منطقة زراعية مهمة، حيث تتوفر على سهول ساحلية ذات تربة خصبة، وعلى مناخ معتدل يتميز بكثرة أمطاره[7] واعتدال حرارته في معظم أيام السنة، واحتوائها على عدة مجاري مائية منها أودية موديبا وموجر والسيبوس (Seybouse)، بالإضافة إلى وجودها بالقرب من بعض البحيرات مثل بحيرة فيتزارة، وقد اشتهرت أراضيها بزراعة القمح كما يتضح من آثار مخازن الغلال والمطامير (Horri) ومطاحن القمح المنتشرة فيها[8].

إلى جانب القمح انتشرت زراعة الزيتون التي نتجت عنها صناعة الزيت، كما ازدهرت زراعة الكروم التي أدت إلى إقامة صناعة النبيذ كما يتضح من تماثيل إله الخمر بوخوس (Bacchus).

بالإضافة إلى القمح والزيتون والكروم، كان للمنطقة ثروة غابية معتبرة، ومن ثمّ مارس سكانها الصيد **(الصورة رقم 1)** وتربية الماشية التي ترتب عنها قيام صناعة نسيجية[9] وجلدية، كما اعتنوا بالصيد البحري مما ساعد على تطوير نشاط تمليح السمك[10] وصناعة مرق الحوت (garum) الرائجة آنذاك.

إلى جانب المنتجات الزراعية والحيوانية احتوت المنطقة ثروة معدنية هامة تمثلت في وجود مناجم الرصاص والحديد الواقعة في غربها (مناجم كدية وعين مكرة وعين الرمّان)[11]، التي صاحبتها صناعة تعدينية كصناعة الأسلحة والحليّ[12] كما تضم المنطقة محاجر الرخام

الأبيض[13] (محاجر فلفلة ومحجر الفجوج) التي تولّدت عنها صناعة تحويل الرخام[14]. والملاحظ أنه نتيجة كثافة الحرف سالفة الذكر خصّصت لها أحياء كاملة، وقد كوّن الحرفيون اتحادات ونقابات (corporations) من أجل تنظيم نشاطاتهم، وحماية حقوقهم، كما هو الحال بالنسبة لنقابات عمال الميناء وأصحاب السفن[15].

2) التجارة

دفعت ضرورة تسويق منتجات هيبون السكان إلى إنشاء أسواق مختلفة مثل السوق اليومي (Macellum)[16]، وكذا السوق الأسبوعي (forum)[17] وتشهد على ازدهار التجارة شبكة الطرق البرية العديدة التي تنطلق منه أو تصل إليه **(الصورة رقم 2)**.

أ - الطرق الغربية :

- طريق هيبون سكيكدة
- // قسنطينة
- // الخنج
- // ميلة
- // قالمة
- // شرشال

ب) الطرق الجنوبية :

- طريق هيبون سوق أهراس

- // مداوروش
- // تبسة
- // هنشير بسرياني (Ad Majores)
- // سيدي عقبة (Badias) - بسكرة
- // تموقادي

وإلى جانب الأسواق وشبكة الطرق هناك النصب الميلية الكثيرة المتواجدة في أراضيها[18]، وكذا أعداد الأوزان المصنوع بعضها من الذهب الخالص[19]، زد على ذلك انتشار تماثيل إله التجارة مركور (mercure)[20].

وما دمنا بصدد الحديث عن موضوع التجارة، فإنه من الضروري البحث عن علاقات هيبون التجارية الداخلية والخارجية، وعن آثارها.

ثانيا) العلاقات التجارية لهيبون

1) العلاقات التجارية الداخلية

كانت لهيبون علاقات تجارية داخلية مع مدن مجاورة كثيرة كقسنطينة والخنج وقالمة ومداوروش وتبسة[21] وغيرها، وهي أراضي معروفة بأهميتها الاقتصادية.

2) العلاقات التجارية الخارجية

أقامت هيبون علاقات تجارية مع بلدان إفريقية ومتوسطية.

أ) العلاقات التجارية مع البلدان الإفريقية

تعاملت هيبون مع قرطاجة قبل سقوطها باعتبارها قوة اقتصادية كبيرة في البحر المتوسط وقد زاد عامل الجوار والانتماء في تعزيز العلاقات بين المدينتين. ومما لا يدع مجالا للشك، هو أنه إلى جانب قرطاجة كانت تربط هيبون علاقات مع بلدان إفريقية أخرى كثيرة كموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية إلى جانب ليبيا (emporia) وتتلخص صادرات هيبون إلى هذه الأخيرة في الزيت والرخام[22].

ب) العلاقات مع البلدان المتوسطية

_ تتصدر شبه جزيرة إيطاليا وجزرها الثلاث البلدان الغربية التي تربطها علاقات مباشرة عبر مينائي أوستيا (Ostie) وبوزول (Pouzzoles)[23]، وكان من أهم صادرات هيبون القمح والزيت والرخام مقابل الأواني الفخارية والزجاجية والمعدنية.

_ إلى جانب ايطاليا كانت تربط هيبون علاقات باسبانيا تتلخص في تصديرها للزيت والخيل[24] مقابل الرصاص والقصدير، كما كانت تصدر إلى بلاد الغال الزيت والتين والرخام مقابل القصدير وبعض الملابس[25].

تشير المصادر إلى وجود علاقات بين بلاد الإغريق وهيبون قائمة على جلب هذه الأخيرة للنبيذ والمزهريات والأواني الفضية، مقابل القمح والرخام والأخشاب[26].

_ لم تبق علاقات هيبون محصورة في بلدان الحوض الغربي للبحر المتوسط بل توسعت لتشمل بلدانا شرقية كمصر وفنيقيا وفلسطين وسوريا وكبادوكيا (Cappadoce)[27] وبلاد الفرس وحسب القديس أوغسطين كان تجار هيبون يتنقلون حتى الهند والصين لجلب خيراتها المتمثلة في الأحجار الكريمة والأقمشة الحريرية[28].

بعد عرضنا لعلاقات هيبون الداخلية والخارجية، ينبغي في اعتقادنا البحث عن آثار نشاط هذا الميناء وهذه العلاقات على المدينة.

3) آثار نشاط ميناء هيبون على المدينة

نتيجة نشاطات مينائها ووفرة مواردها الاقتصادية وعلاقاتها التجارية الواسعة، أصبح سكان مدينة هيبون يتمتعون بمستوى معيشي جيد كما يتجلى من خلال المساكن الريفية الفخمة ذات الطوابق العديدة والمزينة بالفسيفساء[29].

وبالإضافة إلى مساكنها، اشتهرت المدينة بمرافقها العامة منها الحماماتها الشمالية والجنوبية، التي ضاهت حمامات كركلا بروما[30] والتي كانت مجالا للراحة والاستجمام والتثقيف كما امتازت بمسرحها **(الصورة رقم 3)** المتعدد النشاطات كالعروض المسرحية الكوميدية والتراجيدية، إلى جانب عروض الغناء والرقص والنشاطات الفكرية كالشعر والبلاغة والتاريخ وعلم الفلك **(الصورة رقم 4)**، فضلا عن الفلسفة، كما يتأكّد ذلك من خلال

التمثال الذي أقامه سكان هذه المدينة للفيلسوف الرواقي فرانتون (Fronton)[31] تخليدا لذكراه.

ولما كان لهيبون مناظر طبيعية خلابة وتتوفّر على مرافق متنوعة قصدها الناس من كل صوب للتمتع بالصيد والملاحة[32] وبفضل مينائها تمكن رجال الثقافة والفكر الأفارقة أمثال أبوليوس (Apuleius)، المنحدر من مداوروش من التوجه إلى بلدان عديدة كليبيا وبلاد الإغريق[33]، وسمحت للقديس أغسطين بزيارة كلّ من قرطاجة وروما، وقد ساعدت هذه الظروف أيضا المفكرين ورجال الدين الأجانب على مراسلة وزيارة أب الكنيسة المسيحية.

إلى جانب الحياة الفكرية النشطة، يبرز من خلال الكنز الذي عثر عليه في عين المكان المتضمن لـ7499 قطعة نقدية من البرونز[34]، أن المدينة كانت تنعم برخاء ورفاهية.

بعد تناولنا لهيبون الميناء والمدينة توصلنا إلى جملة من النتائج ندرجها كالتالي :

- ساعدت عوامل طبيعية وبشرية هيبون أن تصبح قوة اقتصادية تطورت على مرّ العصور، من العهد الفينيقي إلى العهد الروماني مرورا بالعهد النوميدي.
- أدت حيوية مينائها إلى تنشيط تجارتها الخارجية مع بلدان عديدة افريقية ومتوسطية.

- ساهم الازدهار الاقتصادي الذي شهدته المدينة بفضل ميناءها في تنشيط الحياة الثقافية وسهّل تنقل نخبة المجتمع إلى المراكز الثقافية العالمية آنذاك، بهدف الاطلاع على آخر ما جادت به قريحة المفكرين والإطلاع على ما وصلت إليه الحضارات الأخرى وفي نفس الوقت، كان للوسائل المادية والفكرية التي تتوفر في عين المكان أكبر الأثر في اجتذاب العلماء والباحثين الأجانب.
- نتيجة لجميع هذه التطورات برزت علامات الرفاهية والعيش الرغد والرقيّ في هيبون كما تدلنا معالمها ومرافقها.

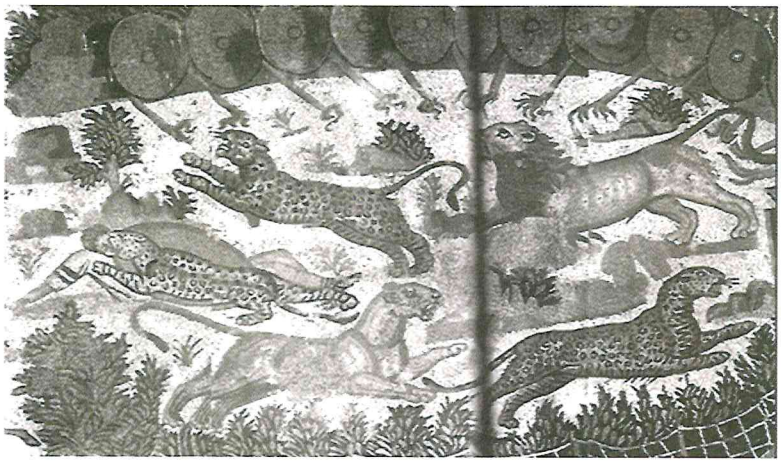

فيسفســـاء الصيد

دحماني (س) ، هيبون ، ص، 127

(الصورة رقم 1)

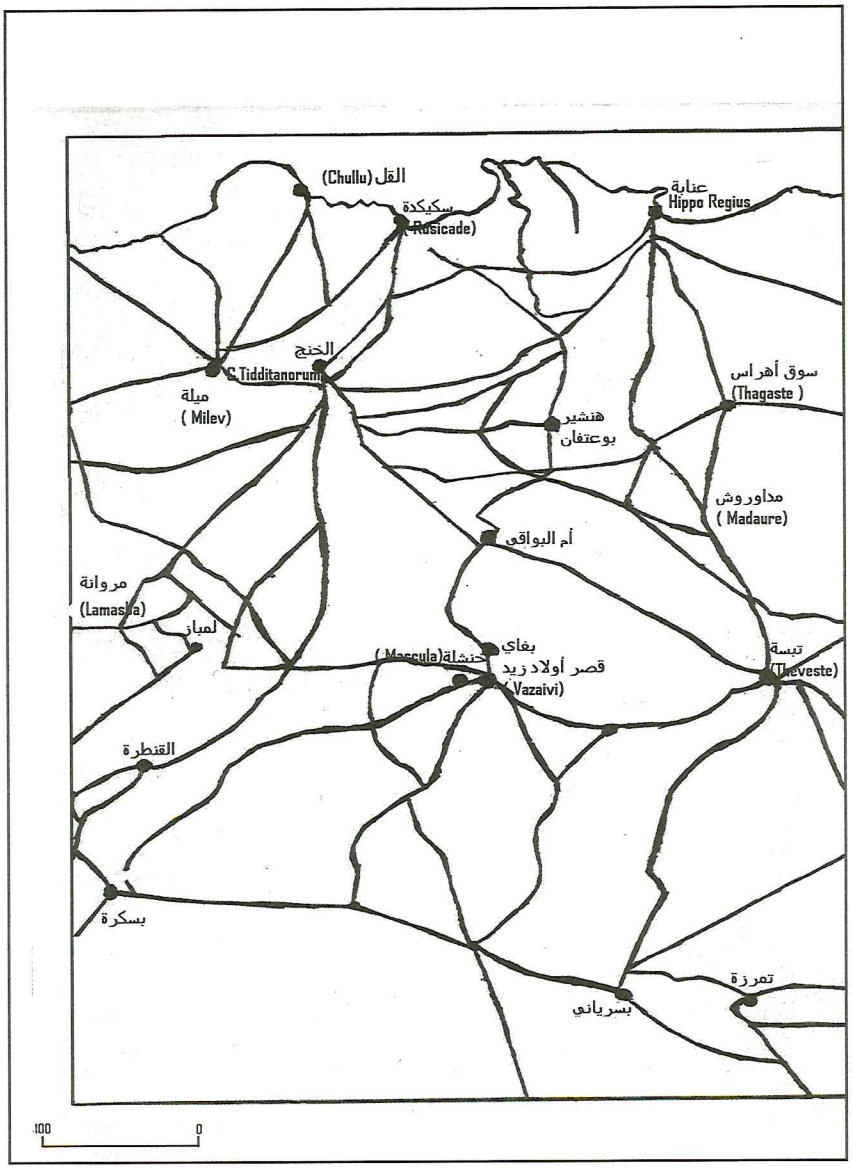
القل (Chullu)
سكيكدة
(Rusicade)
عنابة
Hippo Regius
الخنج
C. Tidditanorum
ميلة
(Milev)
سوق أهراس
(Thagaste)
هنشير
بوعتفان
مداوروش
(Madaure)
أم البواقي
مروانة
(Lamasba)
لمباز
بغاي
(Mascula)خنشلة
قصر أولاد زيد
(Vazaivi)
تبسة
(Theveste)
القنطرة
بسكرة
تمرزة
بسريانى
100
0

(الصورة رقم 2)

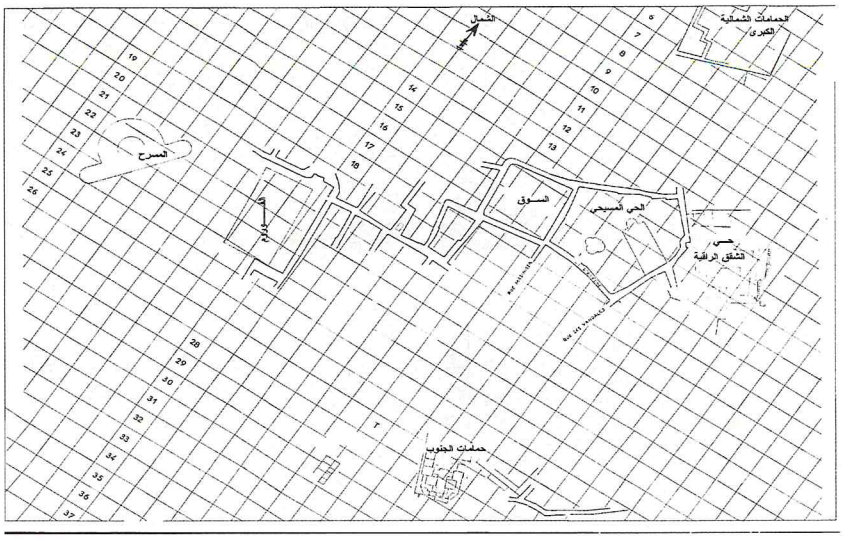

مخطط هيبون (الصور رقم 3)

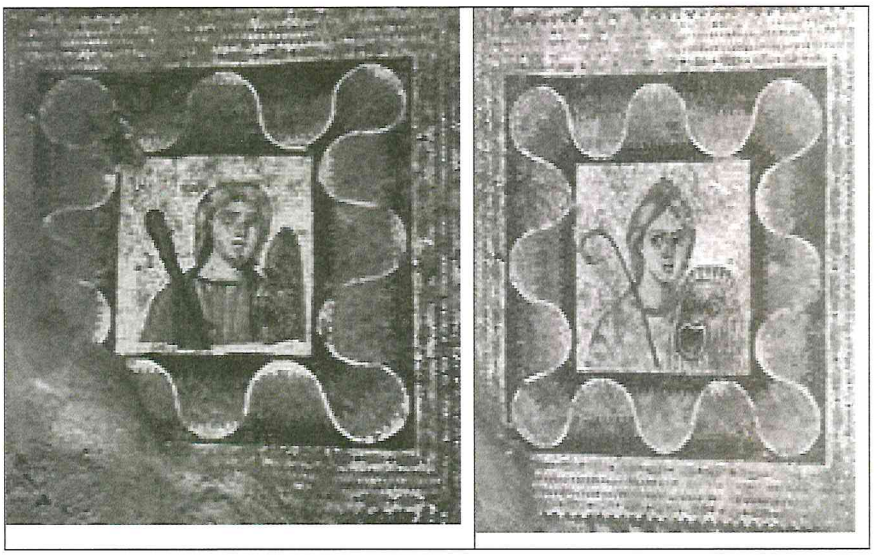

ثالي (Thalie) ملبومان (Melpomene)

إلهة الكوميديا إلهة التراجيديا

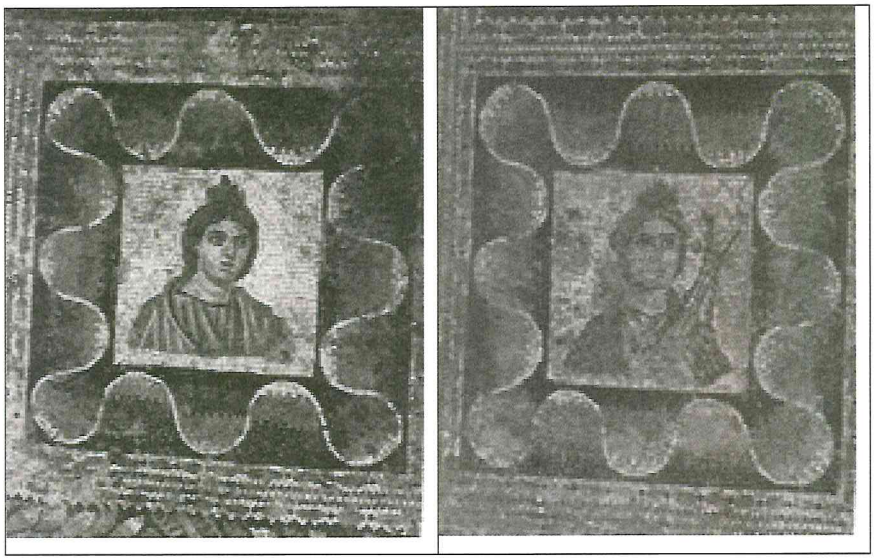

تاربسيشور (Terpsichore) بوليمي (Polymnie)

إلهة الرقص والغناءإله الشعر الغنائي

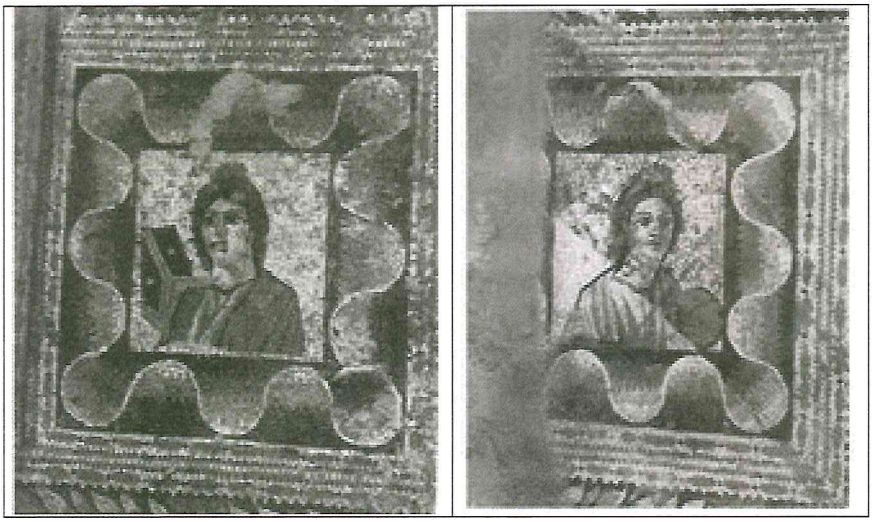

أوراني (Uranie) كليو (Clio)

كوليوب (Colliope)

إلهة البلاغة والشعر الملحمي

(الصورة رقم 4) ربات الفنون والعلوم

عن : Marec (E), Une nouvelle mosaîque des muses à Hippone

Libyca archéo. 1958, T. VI, 1° semestre , pp. 127/138

الهوامش :

1 (Gsell(S), histoire ancienne de l'Afrique du nord, Germany ; 1971, T. V, p248 : Mazard(J), corpus nummorum mauretaniaque, France, 1955 ; p152. بالإضافة إلى هيبون، حملت ثلاث مدن افريقية اسم مدينة ملكية، وهي على التوالي : تميدا (Thimidaregia) ومدينة زاما (Zama regia)، ومدينة حمام دراجي (Bulla regia)

Camps (G), Massinissa ou le début de l'histoire, libyca, 1960, p. 275

2) Gsell (S), op.cit., T.II, p. 151.

3) Mazard (J), op.cit. ; p. 152.

4)أضافة الى دوره السكري والسياسي في نوميديا وموريطانيا القيصرية كان لستيوس نشاطات تجارية في عين المكان تدرّ علية أرباحا طائلة تتماشى وتطلعات هذا القائ كما كان على رأس جمهورية تتكوّن من أربع مستعمرات هي سكيكدة وميلة والقلو قسنطينة، BAXCVI ,I , V : Marec(E), inscriptions d'Hippone ; libyca archéo,1956, IV,2p300 ,Gsell(S.), op.cit.,t8, P.138

5) CIL,VIII,5230. ; Gsell(S) , atlas archéologique d'Algérie ,f 9,n°59,

6) عثر في هيبون على مسلة بونيقية خاصة بالخصوبة .Gsell(S), op.cit., T. IV, p. 271

7) CIL., VIII, 5351, Maitrot (C), le musée d'Hippone, BAH, 1913, 14, T. 33, P.147.

8) Hamman (AG) , la vie quotidienne en Afrique du nord du temps de saint Augustin, Paris ; 1979

9) p. 307. Lassus(J), l'archéologie Algérienne, libyca archéo.,1958 , VI, 2,

10) Ibid., P.91.

11) Ibid.

12) Gsell (S), AAA, f9, n°2.

13) CIL.,VIII, 21103

14) Marec (E.), Hippone la royale, antique Hippo regius ,Alger, 1958, P.310 ; Maitrot (A M), les petits métiers à Hippone ,libyca archéo., BAC., 1930, P. 95

15) Gsell (S.), AAA, F. 9, n°3.

16) تمّ صنع الجرار والمصابيح والقرميد، راجع ، شارن (ش)، النشاط التجاري في نوميديا وموريطانيا القيصرية، الجزائر، 2002/2001، ص. 205/207.

17) نفسه، ص. 290.

18) Lassus (J), l'archéologie. , P. 245.

19) شارن (ش)، المرجع السابق، ص. 258/ 267.

20) Gsell(S), op.cit., F. 9, n°59

21) Lassus(J), op.cit.,libyca, VI, 1958, p245.

22) Hamman(AG) , op.cit., P.p38,46.

23) شارن (ش)، المرجع السابق، ص. 460/467/469/483.

24) نفسه، ص. 531.

25) نفسه، ص. 493/495.

26)Sempère(H), les ports et la vie maritime antique de Carthage à Tanger, P.aris, 1957, P.p201/205/206/207.

27) شارن (ش.)، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص. 444/449.

28) Lecocq(A), le commerce de l'Afrique romaine ,BSGO, 1912, XXXII ; p. 307

29) Gsell(S), AAA.,f9,n°59 ; Lancel(S), Etude sur la Numidie d'Hippone au temps de saint Augustin MEFR., 1984, 2,t96

30) Lassus (J),L' archéologie., P.p227/238

31) Marec(E), inscription., P.292

32) Pline le jeune, lettres panégyriques de Trajan, belles lettres, Paris, 1947, IX, 33.

33) Sempère (H) , op.cit., P. 207.

34) Lassus (J) op. cit., P. 248/249.